

عودة إلى العالم الجديد

إن معرفتي بحقائق الولايات المتحدة الواسعة علمًا وعملاً، جاءت متأخرة جدًا. إذ كانت رحلتي الأولى إليها بعد أن اجتزت سبعين عامًا من عمري. وشاءت الصدفة أن أعود من تلك الرحلة شديد الإعجاب بما أدت تلك البلاد وتؤدي للحضارة ومقوماتها في مدى مائتي عام من حياة بدأتها بالأبَاء المهاجرين وقاية لأنفسهم من اضطهاد ديني في بلادهم. نزلوا في أجمة وإحراج، قاموا بإصلاحها وزراعتها ما استطاعوا، وأخفقت زراعتهم في العام الأول ومات منهم من العجزة والأطفال كثير. ولكنهم انتهوا هم وأحفاد أحفادهم من بعدهم، والمهاجرون إلى العالم الجديد من العالم القديم، في قرنين من الزمان بالوقوف في صدارة العالم علمًا وعملاً، ودفاعًا عن الديمقراطية، وبعدها عن مغامرات طلاب الحكم الشمولى، وقد عرف الناس من قبل ومن بعد مصير الدكتاتوريات وزعمائها الأوحدين، وما نزل بشعوبهم من ظلم واعتداء وضياع وخراب. أتاحت لى رحلتي الثانية تأكيد هذا الإعجاب عندما شاهدت الاهتمام الإنسانى العميق بمعرض توت عنخ آمون، الذى أقيم فى واشنطن، ونيويورك، وشيكاجو وسيفتح فى غيرها من مدائن الديمقراطية الأمريكية، رمزًا لصداقة عادت لصفائها بيننا وبين أهل تلك البلاد، واشتركا منا فى الاحتفالات بمضى مائتي عام على ثورة الولايات المتحدة فى وجه المستعمر، وإعلان الاستقلال، ووضع دستورها القائم بنصه إلى اليوم، مصحوبًا بإضافات وتعديلات ألحقت به منذ حياته الأولى.

وفي ظني أن زوار الأقصر ملمون بأمر البيت العتيد القائم على الضفة، المعروف «شيكاجو هاوس» وهو امتداد مصرى لمعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو، ثانياً المدن الكبرى الأمريكية.

والكثير منا يعرف مؤلفات العلامة الأثرى والمؤرخ جيمس بريستد، كما عرف الشباب، والتفوا بتلميذه الكبير، العلامة الدكتور جون ويلسن، وطالعوا بعض كتبه، أو ترجمتها العربية (للمرحوم الدكتور فخرى). وتحدثت هنا مؤخراً، تأبيناً له، وقد رحل هنا في أوائل هذا العام.

كان الاثنان من أهل شيكاغو، كبرى مدن ولاية اللينوى. بل كان أولهم واضع اسم أمريكا ضمن الشعوب المنتورة التي عنيت بحضارة المصريين القدامى. وعمل كلاهما أستاذاً في جامعة مدينتها، وتعرفنا عليها في مصر، وأشرت في بعض مقالاتي وفي كتاب من كتبي إلى أثر بريستد على تكويني الثقافي.

حرصت جامعة شيكاغو، بالاشتراك مع من أعانوا في إقامة المعرض، على دعوة أربعة من المصريين لحضور افتتاح معرض توت عنخ آمون، واختارت وزارة الثقافة الضيوف الأربعة: الأثرى المؤرخ النابغة الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح، والأثرى النابه الدكتور على محمد حسن، والأستاذ العلامة الدكتور مجدى مراد وهبة، وكاتب هذه السطور.

وأتاحت لى زيارة شيكاغو، وجامعتها، ومعرض الملك توت «كما يسميه أهل المدينة انتناساً به» ثم زيارة نيواورليان «نواورلينز في لغتهم» التي تستعد لإقامة المعرض ذاته في سبتمبر القادم، أن اطلع على أسلوب إعداد الأهلين بالمحاضرات، والمذكرات، والنشرات المصورة لأشهر قبل

حلول يوم الافتتاح، وفي خلاله. وهأنذا أنزل إلى عروس دلتا المسييبي في إبريل لأجد متحفها للفنون الجميلة يتأهب للمعرض قبل افتتاحه بأربعة أشهر. والتقيت بالسيدات والآنسات المتطوعات منكمبات في المساعدة بكل ما يطلب منهن. والمدينة الساحرة تستعير بعض الآثار المصرية من متحف بوسطن، لتقيم معرضاً صغيراً يزوره طلاب المدارس بصحبة معلمهم ومعلماتهم ليتعرفوا عملياً على حضارة مصر القديمة التي يدرسونها في كتبهم، حتى في المراحل الابتدائية.

احتفل بافتتاح معرض شيكاغو في ثلاثة أيام: للرسمين وعلية القوم، ورجال العلم والأدب والفن، وإذا بالساحة الفسيحة أمام بناء متحف التاريخ الطبيعي، تحشد في اليوم الثالث بأهل المدينة والوافدين عليها يقبلون على الزيارة، ويصعدون الدرج الواسع لينتظروا في ترتيبهم فتح الباب، والولوج إلى قاعات التاريخ الطبيعي حيث يمكنهم تسليية انتظار دورهم للسماح لهم بالدخول طوفاً إثر طوف، إلى القاعات التي استقبلت آثار الملك الشاب، يشاهدونها في هدوء، دون عجلة أو تلبث.

وأشهد لمن قاموا بعرض كنوز توت عنخ آمون في شيكاغو، بأنهم جمعوا بين العلم والتجربة والذوق الفني، مدركين أهمية إمداد المعارض بالشروح المكتوبة، بل والمسموعة من خلال ساعات تأخذ بيد الزائر من فاترينة، إلى نصب وتحاضره عن محتوياتها بمأثور الكلام.

وكانت جامعة شيكاغو في مقرها - ولها متحف جامع لعدد من الآثار الهامة للعالم القديم ومصر في مقدمته - قد أعدت معرضاً إضافياً إلى معرض توت عنخ آمون، ودعت كبار الأثريين والمؤرخين من العالمين القديم والجديد لسلسلة محاضرات عن آثار مصر بدأت قبل افتتاح المعرض

الكبير بأشهر، وهى متواصلة فى خلال إقامته، وقد قبض لى أن أحضر محاضرة أستاذ الآثار بجامعة لندن يحاضرنا عن الاكتشاف الجديد بسقارة، وهو معبد جنائزى لهورن محب، غير المدفون هناك. فقد تولى الملك كأخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ودفن فى وادى الملوك.

ولقد عشت طالباً فى عصر اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وكان حدثاً علمياً، ومصدر غضبات مصرية من كبار الإنجليز الذين لم يسمح لهم بزيارة المقبرة، وغضبة مصرية من حكومة البلاد، حتى زار الاكتشاف الملك فؤاد. وغضبة ساخرة من المستر «خالف تعرف»، وهو الكاتب الذى لا حاجة له إلى السلوك الدعائى، فهو أشهر من «علم فى رأسه نار» نادى برناردشو بأن فن توت عنخ آمون يتسم بالسوقية التى تلعلط فى إبريزة وهاجة وفيروزة، مثل غنية الحرب التى تتحلى بما يحولها إلى فترينة صائغ، وأضاف شو إلى هذا تنديده بهبوط الذوق العام فى العالم، مستنداً إلى الاهتمام الطفولى بتلك الشخايل.

وانتهى الأمر بغضبة فرعونية على محمول الحفائر التى نبشت قبر الفرعون الصغير - فيما يرى مخرفو العالم - حين مات اللورد كارنارفون بلدغ بعوضة تضن بالهيروغلىنى. وحمل جثمان اللورد، بليل، إلى مدرسة الطب المصرية، حيث أخفاها أستاذنا «ديرى» فى مشرحته الخاصة الملحقة بمكتبه، وحمل المقاتيح. وحاولنا رؤية ما بداخلها من ثقب الباب، فلم نر غير جثمان ملفوف.

اقتصرت معرفتى بكنوز توت عنخ آمون فى مطالع العشرينات بقراءة ما كان ينشر عنها، ومشاهدة صور أكثرها فى مجلة لندنية مصورة، ربما كانت «الجرافيك» أو (الالستريند لندن نيوز) وسافرت بعد ذلك عضواً بالبعثة إلى باريس.

وعندما عدت من البعثة إلى مصر، هرولت إلى المتحف المصرى لأرى الآثار التى أثارت تلك الضجة. وأمام بهو العرض بالدور العلوى تهكمت فى نفسى على برناردشو، وما دمغ به كنوز الملك توت. لأننا فى الحق إذا أغضبنا عن بذخها، اكتشفنا صورة جد صادقة، فوذجاً لحضارة لامعة. هذا عاد إلى ذاكرتى وأنا أشهد جماهير شيكاجو تدخل طففاً، وتفغر أفواهما، دهشة شعب عمره مائتا عام من آثار حضارة ألفية فى وادى العجائب بصعيد مصر. وكان أهم مألقت نظرى - مادمت أعرف كل القطع المعروضة - عناية العارضين بوضع صور فوتوغرافية مكبرة بطول وعرض الحيطان، لداخل المقبرة، وتابوت الملك وناووسه، وغرفة الكنز بكراكيبها الغالية فى الوضع الذى وجدت به. وهى الصورة التى نشر بعضها مكتشف المقبرة هوارد كارتر فى كتابه يؤرخ للبحث والتنقيب والاكتشاف الهام لمقبرة لم تمسها يد اللصوص فى الأغلب، إلا مرة واحدة فى العصر القديم.

وأحب أن استعيد ذكرى زيارتنا لعالم الآثار المصرية، هيوز، وهو فى سرير المرض بمستشفى الجامعة. صاحب الفضل الكبير فى مطالعة النصوص الديموطيقية، وقد ظل مديراً. «ليبى شيكاجو» الأقصر سنين طوالاً، وتلمذ عليه الجيل الحاضر من شباب الأثريين الأمريكان. وتمنينا له الشفاء العاجل.

وعلى الرغم من أيامنا السعيدة جداً بما لاقيناه جميعاً من حفاوة بتاريخنا الأجدد فى الجامعة الكبيرة، ولدى أهل المدينة الساحرة التى خرج منها معماريو «ناطحات السحاب» الأوائل، فكانت عمائرهم الوحيدة التى يبهرك مظهرها، دون أن يؤذى إحساسك الفنى، ذلك لأن تلك الناطحات

على شاطئ بحيرة متشيجان لا تمثل النشاط المعماري الذي تظهر به في نيويورك، أقول على الرغم من سعادتي، كان شعوري العام عند خلوتي بنفسى مشوباً بحزن كظيم، وهو قياس ما أراه في تلك البلاد التي يبهرك ثراؤها، ونشاطها المحموم، ونظامها - هذه البلاد عندي أقوى البلاد قدرة على استخدام الثروة، بعد استجلابها بالجهد والعرق والكفاح من قاع الفقر، ثم رد بعض هذا الإثراء للنفع العام - أقول: قياس ذلك بما حدث في مصر، التي كانت في طريقها السليم إلى الحضارة العالمية بحق مساهمتها التاريخية فيها ثلاث مرات، من اختلاط الأمور عليها في هذا النصف الثاني من القرن العشرين، وتشتيت شبابها بشتى الادعاءات والدعوات والدعايات.

وكان هذا الأصل فيما جاء بصدر المقال.

مدينة لها تاريخ في صنف من الموسيقى

لو أنى من هواة «الراجتايم والجاز، والبلوز، والسوينج، واليوجى - ووجى» لكان التفسير مقبولاً أن يقع اختياري على مدينة أورليان الجديدة (نيواورلينز)، ميناء ولاية لويزيانا (عاصمتها باتون روج)، ولايات الجنوب الشرقى. أَيْمَم شطرها بعد انتهاء ضيافة جامعة شيكاجو لنا.

وفرق بين أن تكلف بهذه الموسيقى الذائعة الصيت في أركان الدنيا، وبين أن يدفعك حب الاستطلاع إلى الإحاطة بمصادرها، وبسِرِّ جاذبيتها، ولشباب العالم خاصة، من البنين والبنات، حتى في بلادنا التي تعشق مطربها، ألا كم سمعت الآباء هنا، وفي الخارج، من عشاق الموسيقى الكلاسيك، يتعجبون من تعلق أولادهم بتلك الموسيقى الصاخبة المحمومة، دون غيرها.

ولعل شبابنا يعلم بأن منبت موسيقى «الجاز» هو مدينة أورليان الجديدة. وهذه قصة طويلة أرجو أن أوفق في سردها بإيجاز، لا سيما وأن سرانجذابي إلى مدينة الجنوب الشرقى الأمريكى، الواقعة على خط ٣٠ درجة شمال خط الاستواء، أى على خط العرض نفسه الذى تقع عليه القاهرة، هو من بقايا الرومانتيكية التي لم أنجح تماماً في حبسها بقمقم: فقد كانت لويزيانا مستعمرة فرنسية، أهلها يعرفون «بالكربول»، إذ كانوا فرنسيين خالصاً، ولدوا بمستعمرات العالم الجديد الاستوائية، باعها نابليون القنصل الأول لجمهورية فرنسا عام ١٨٠٣ إلى الولايات المتحدة.

وأذكر يوم نزلت بمدارس في الهند ضيفاً على زميلي مدير مباحث الأسماك، عام ١٩٣٤ وزوجته الإنجليزية أننى كنت هناك على مقربة من مستعمرة فرنسية بالهند اسمها «يونديشيري»، فأستأذنت مضيفى أن أفرك كعبي إليها، فقام العلامة الهندى (وقرينته من أصل تبشيرى)، فى وجهى رافضين قسراً بأن أقوم بهذه الزيارة. وفهمت من تزمتها أن «يونديشيري» كالفراغ والجدة، فلم أشاهد المستعمرة الفرنسية، حماية لى من «مفسدة المرء أى مفسدة»!!.

«موسيقى الجاز» تحظى فى أصلها وفصلها بتعبير الشعب الأسمر عن حنينه إلى وطنه النائى فى أواسط أفريقيا، غاباتها وأدغالها، وقد اختطف أفرادها خطأً بواسطة النخاسة، وأرسلوا قيد الأصفاد والسلاسل، فى قاع سفن إنجليزية أو هولندية ليباعوا عبيداً، يعملون فى حقول ولايات الجنوب. ومن أوائل الكتب الإنجليزية التى قرأت فى مراهقتى كتاب مسز بيتشر - ستو «كوخ العم توم». كما أن مارك توين من أحب الكتاب الأمريكان إلى نفسى، لانفتاحه، وصراحته، وسخريته فى أسلوب من السهل الممتنع. وأول ما عرفت المسيبى - خارج الجغرافيا - كان فى كتاب له هو: «فوق مياه المسيبى فى سالف العصر والأوان». كما قرأت له «مغامرات توم سوير» و «مغامرات هاكلبيري فن»، وعرفت الكثير عن مجتمعات الجنوبيين فى كتابات القصاص الأمريكى العظيم، وليام فوكنر.

وموسيقى «الجاز» على الرغم من أصلها الإفريقى، فقد تبنها شعب الولايات المتحدة، وكانت فرق «الجاز، من السود حافراً ومعلماً للبيض فى تكوين فرقهم. ويفخر الأمريكان بأن الموسيقى التى يعتبرونها كفن

خاص بمناخهم، ومدائنهم، وإحساسهم الاجتماعي، هي «الجاز». ونتيجة كل ذلك إحساس دفين بأن جنوب الولايات المتحدة وأواسطها واقعة تحت سحر نهرها الكبير، الموصوف «بأول مان ريفر» («سيدها العزيز النهر» في لهجة الأميركيكان السمر).

أما أن معرض «توت عنخ آمون» سوف ينتقل من شيكاغو إلى أورليان الجديدة، فلم أعرف بخبره إلا بعد بدء الاحتفالات بافتتاح المعرض بمتحف التاريخ الطبيعي في ثاني مدائن الولايات المتحدة، بعد نيويورك. ثم قابلت في شيكاغو السيدة القائمة بالاستعداد للمعرض بمدينة أورليان الجديدة في متحفها للفنون الجميلة.

هذه هي الدوافع بمجموعة التي حفزتنى على السفر إلى الجنوب. وإذا انصرف الكلام إلى أورليان الجديدة، فلا معدى عن البدء بحكاية موسيقى «الجاز».

قام الرئيس إبراهيم لنكولن ينادى بتحرير «العبيد» مُستنداً إلى الدستور الأميركي. وكان من أشد الرجال ثباتاً على مبادئه المثالية والعملية. فأنهى الأمر إلى إثارة حرب أهلية شعواء بين ولايات الشمال، ويعرفون «باليانكي» وولايات الجنوب. وراح لنكولن ضحية حفاظه على مبادئه، على وحدة الولايات الأميركية، غداة انتصار جيش الشمال على الانفصاليين، وسحق جيشهم الذي قام على اليغضاء الجنسية، والمصالح الذاتية ليقاوم «تحرير العبيد».

تحرر السود، فانفصلوا عن أسيادهم، وبدءوا السعى في مناكب الحرية بمدينة أورليان الجديدة بسبب استعدادها على تقبل الأفريقيين، وكان أهلها «الكربول» قد اعتادوا رؤية بعض السود في أيام الآحاد يغنون ويرقصون

في ساحات مدينتهم على صوت الطبل . ومن هذا إلى تقبل موسيقى حسية جسدية، طليقة، بلا نظام، سبب عجيب هو أن أورليان الجديدة كانت المدينة الوحيدة في الولايات المتحدة التي كانت الدعارة مباحة فيها بحكم القانون (وقد لا يعرف الكثيرون أنها المدينة الوحيدة هناك التي تطبق القانون المدني الفرنسي إلى اليوم). وبعد عام ١٨٩٧ بدأ حصار مزاولة هذه المهنة في حى من المدينة عرف باسم المحافظ الذى قضى بهذا الحصار، فهو حى « ستوريفيل ». فإذا كان هذا الحى منبت الرذيلة، فقد كان كذلك منبت موسيقى « الجاز ».

لأن العبيد المحررين التمسوا وسيلة للعيش في أغانيهم على صوت « البانجو »، أو « الجيتار » ولقد وجدوا في أورليان الجديدة مجالا مستعداً لقبولهم على الرحب . ثم اكتشف السود أن المدينة غنية بآلات موسيقى النفخ النحاسية والخشبية . لأنها بلد اختص بهذه الصناعة من قديم . بالإضافة إلى أن السوق كان محتوياً على آلات نصف عمر، أسعارها في متناول طالبى العيش . وعلى هذا تألفت منهم فرق موسيقية تعتمد على هذه الآلات، في مدينة كلفة بموسيقى الآلات النافخة في المواكب والأعياد القومية، والسيرك، وحتى الجنازات، والنزهات الخلوية .

كما وجدت لها مكاناً على الواهورات البخارية التي تمخر عباب المسيسيبي ريحة جيئة من مصبه حتى التقائه بروافده في أميركا الوسطى : أنهار أليزورى، والأحمر، والأوهايو . وبذلك اتسع المجال للموسيقين السود بآلات جديدة عليهم، غير البانجو والجيتار . لم يتلق السود دروساً منتظمة للعزف على آلات النفخ تلك، ولا كانوا يعرفون شيئاً عن كتابة الموسيقى أو قراءتها . كل أدائهم قائم على التجربة، والممارسة والحفظ

بالسمع. فكانوا ينقلون الأغاني الشعبية على تلك الآلات، ويعنون في التلاعب بألحانها في أسلوب فحج، وألوان صوتية غير معتادة، وكان ذلك مصدر الإعجاب بجدة ما يؤدون في براعة خارقة وإيقاعات عجيبة. «الجاز» إذن بدأ ارتجالاً واجتهاداً من شعب موهوب. نقل الألحان الدارجة على آلات موسيقية يشتد فيها الزعيق، محاكاة لزعيقهم الحنجري في الغناء. وهذا نحقق لهذه الموسيقى جدة في الإيقاعات، وفي التوافق، والتناظر بين الآلات والألحان، والصدام الكونترابنطي والهارمونيّات ذات ألوان تخالف ما جرت به الموسيقى الحاملة. والخاصة الكبرى لهذه الموسيقى تعرف «بالسنكوبية»، وهى التوكيد والانتكاء بشدة على النبر الضعيف، وإضعاف النبر القوى بالمرور عليه مر الكرام.

أنشأ الأفريقيون في أميركا إذن موسيقى من نوع جديد على الإطلاق: شعبي، سوتى، منطلق زاعق، محموم. وأى جمهور أصلح لها من رواد «ستوريفيل» فى سكرهم ومهيبتهم! مما يعرفه رواد علب الليل الرخيصة.. والغالية. النجاح فيها رهين بكل الصفات التى انطلقت من الأبواق والشبابات والسلاميات: الكلارينت، والكورنو، والكورنت، والطرمبيطة والطرمبونة، وشتى أنواع الطبل والخبط والرقع.

وانتهى الأمر إلى أن تمكن البيانو كلى الاحترام من النزول إلى الحلبة بمنشآت وتركيبات موسيقية مصدرها الإيقاعات والزعقات والسنكوبات. ويلاحظ أمران واضحان فى هذه الموسيقى: ثبات الإيقاع فى القرار، وعفرتة اللحن وتمزيقه بالإيقاع السنكوبى فى الأصوات العليا. وهذا غداً موسيقى «الجاز» هم ملوك حتى ستوريفيل، شجعهم رواده على الانطلاق والمباراة فى الزعيق. والعنصر الأساسى فى الموسيقى التى

نشأت بأورليان الجديدة يتفرع إلى نوعين «الراجتاييم» و«البلوز». ولا ترجمة لهذه الكلمة الأخيرة بما له علاقة باللون الأزرق، وإنما هذا مصطلح على موسيقى الأسي، والحنين إلى الوطن النائي، وطبيعته هذه جعلت «البلوز» أصلح للأناشيد الدينية أيضاً لدى السود.

ولست أرى ضرورة أو جدوى من محاولة تفسير كل هذه الكلمات. المهم أن «الجاز» بدأ في أورليان باسم «راجتاييم»، وإلى جانبه «البلوز». والمهم أيضاً أن نشأة «الجاز» ونموه كانا فيما بين ١٨٩٠ و ١٩٢٠ أما انتشار هذه الموسيقى في أميريكاً وأوربا، وفي العالم، فقد بدأ بإصرار وزارة البحرية على حظر الدعارة، وإغلاق بيوتها، ومنندياتها في حي «ستوريفيل»، وتم ذلك بقرار الحكومة الفدرالية سنة ١٩١٧.

وإذا كانت بعض هجرات موسيقى الجاز إلى الشمال بدأت لماماً، فقد انتهت بعد تصحيح «حي ستوريفيل»، وإغلاق ملاهيه، بهجرات جماعية على سفن المسيسيبي البخارية التي تتحرك بقوة الرفاصات الجانبية أو الخلفية، مما نعرفه في أوائل بواخرنا النيلية، وقد سرى بين أفراد هذه الفرق تيسر المعيشة في سان لويس وغيرها من البلدان الواقعة على المسيسيبي وروافده، وفي شيكاجو. ويمكن القول بأن «الجاز»، الذي ثبت في نيو أورليان، نما وترعرع في شيكاجو، وتضخم، وارتفع شأنه - كما هي العادة بالمدينة الغول - في نيويورك.

ولم تقتصر الهجرة من الجنوب إلى الشمال على الموسيقين. لأن دودة القطن - وهو مع قصب السكر عماد ثروة الجنوب - استفحل شرها عام ١٩٢١، منتقلة من المكسيك عبر نهر «ريو جراندى»، وقضت على نصف

محصول القطن في لوزيانا. وكانت أزمة اقتصادية في الجنوب استمرت ثلاث سنوات.

وكانت هذه الهجرات - ومنع الخمر بقانون فيدرالى - مصدر السمعة السيئة التي لصقت بشيكاغو في عشرينات هذا القرن. فقد تحولت المدينة العامرة إلى مرتع العصابات التي تعمل في تهريب الخمر، وتسبغ نعماً، مكاسبها على ذوى الذمم الخرية من الباحثين عن الثراء.. عن طريق الوظائف. ولعل القراء يذكرون حكايات آل كابونى وزعامته الرهيبة، وأقرب صورة إليها شاهدناه حديثاً في فيلم «الأب الروحى» كانت «رفاصات» المسيسبى هى أداة الانتقال، يعمل عليها الموسيقيون ريحة جيثة، وعندما يقف الرفاص بمدن «كايرو» و«سان لويس» و«منيا بوليس، إلخ، يشغل أهالى هذه المدن بفرقها الموسيقية طوال وقوف الباخرة.

ولا حاجة بي إلى ذكر أسماء «ملوك الجاز» فمعرفتى الفعلية بهم قاصرة، وأنا واثق من أن هواة موسيقاهم يعرفون عنهم وعننا أضعاف ما أعرف عن فولفجانج، أما دبوس موزار، ويوحنا سباستيان باخ. المهم أن ملك ملوك «الجاز» لويس أرمسترونج، غادر أورليان الجديدة على الرفاص «ديكسى بيل»، وكلمة «ديكسيلاند» تشير إلى «نو أورلينز». وترك مذكرات عامرة عن نشاطه الفنى في سان لويس، وقد أصبح حتى وفاته بطل أبطال الجاز في العالم أجمع.

إنما اضطررت، تقديماً للمدينة التي أحببت بعد أيام قليلة قضيتها في حيها الفرنسى، المعروف «بالكاريه» (= المربع) أن أبدأ بأهيتها كمسقط رأس فن يجب أن نعمل له حساباً، مقتدين في ذلك بالفرنسى

ديبوسى ، وكان أول من أدخل إيقاع «الراجتايم» فى بعض مقطوعاته ،
 وإيجور سترافنسكى ، ورافيل ، وغيرهم من عطاء ما أسميها موسيقى
 الحضارة ، كما عملت حساباً لموسيقى «الجاز» الذى حاول ، ونجح ، فى
 الانتقال إلى موسيقى الحضارة فى مؤلفاته التى قدمتها بالبرنامج الثانى :
 «رابسودى أن بلوز ، وكونشرتو البيانو والأوركسترا ، وفى متابعة عن
 فيلم «واحد أمريكانى فى باريس» وأغنى الموسيقى الأمريكى جورج
 جير شفن .

چیمی کارتر

حدث هذا مساء الأربعاء ٢٠ من إبريل، ختام يومي الأول بمدينة أورليان الجديدة، وقد أويت إلى غرفتي بفندق «أورليان - بوربون»، بالحي الفرنسي، استعداداً لمشاهدة رئيس الولايات المتحدة في التلفزيون الملون، وهو يصعد درج الكابيتول بواشنطن دي. سي. ليخطب الكونجرس في موضوع «الطاقة»، والخطبة التي تقترح بشأنها. وقد جاء بالصفحة الأولى للنويويورك تايمز بعد ذلك بثلاثة أيام مقال حرره جيمس نوتون على أساس تحقيقات صحفية قام بها، هو ومجموعة من مراسلي الصحيفة الكبرى، بكتبها في واشنطن. المانشيت: «كارتر تصوره لخطبة الطاقة دون أي اعتبار سياسي». وتحتها: «لقد عولت على كبح استخدام الأمة للوقود، حتى ولو كلفني هذا عدم تجديد رياستي».

جاء في مطلع المقال الذي شغل نيفاً وثلاثة عواميد: قال كارتر لزمائره قبل أن يعقد حفل تقليده الرئاسة، بأنه عاقد العزم على تصحيح (ريفورم) سلوك الأمة فيما يختص باستخدام الطاقة «حتى ولو كلفني ذلك عدم تجديد رياستي» ويضيف الصحفي: «إن بالكونجرس ديموقراطيين يشعرون بإمكان الإصلاح، وبعض الآخرين يخشون بأن ذلك قد يعدل من آفاقهم السياسية» (ترجمة حرفية).

«والطريقة التي عرض بها الرئيس مقترحاته بشأن الطاقة، في هذا الأسبوع تظهر الرئيس في موقف يكاد يتجرد تماماً عن السياسة. وهذا

عجيب في عاصمة تعتبر الحرص على المصلحة الشخصية من المبادئ الأساسية للقيادة.

«والخطة فكر فيها تحت غطاء السرية بواسطة المختصين تقنياً، وواجهها اعتراض الاقتصاديين، ثم تحررت بواسطة السياسيين. وهذه الطريقة، قد تلقى ضوءاً على أسلوب رئيس غير تقليدى. طريقته دارت على عناصر من النواع الآتى:

«عهد مستر كارتر بكتابة أهم موضوع في سياسته الداخلية، حتى الآن، إلى رجل عقلائى، مترفع، من الحزب الجمهورى، هو جيمس شليزنجر، شديد الاقتناع بأهداف الطاقة، مع أضعف إحساس بالحقائق السياسية.

«ومع أن الرئيس أفضى بأن رجال وزارته أمامهم أوسع نطاق في الحكم، فإن بعض المهتمين منهم اضطروا إلى شق طريقهم إلى الخطة المقترحة، مثل سكرتير النقل، وسكرتير الخزانة رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين».

وتبع ذلك تشريح للمشروع كله، وأثره لدى رجال الطاقة، ومن يعينهم الأمر في شتى الأنحاء والمراكز.

جلست إلى التليفزيون إذن، في مساء ذلك الأربعاء، أشاهد قاعة اجتماع الكونجرس الحاشدة، وهى تنتظر مقدم الرئيس كارتر. ثم ظهر شخص نحو يمين الناظر إلى الشاشة وصاح بصوت جهورى معلناً: رئيس الولايات المتحدة، دخل بعده مستر جيمى كارتر فى بساطة وألفة، يحى المعارف يينة ويسرة باليد أو بالإشارة. متجهاً إلى المنصة حيث بدأ خطابه

على التو، في جو توقع شديد، وقد ران السكون على المجلس بعد نوبة التصفيق المعتادة .

أقدر أن الرئيس تكلم في حدود ساعة، واضح السماحة على محياه، يتحرك يمنة ويسرة حركات قصيرة، كمن يغير وقوفه من قدم إلى قدم - والصورة لا تظهر منه إلا نصفاً أو ثلاثة أرباع. لا يفارقه الهدوء مطلقاً، ولا يَخْتَفِي الابتسام إلا في فترات قصيرة .

سمعت الخطاب كله بوعى وتركيز، وإن لم أهتم كثيراً بتفاصيل ما يعرض من مقترحات أولها ضريبة خفيفة تفرض على المستهلك للنفط، وتفرض في زمن معين قادم .

فمركز اهتمامي هو الشخصية الواقفة في الصورة أمامي، وأثر الخطاب على أعضاء الكونجرس وخاصة عندما قال مبتسماً في سذاجة بأنه يدرك تماماً أن مطلبه ليس من المطالب التي تحوز قبول السامعين . وكان واضحاً للجميع، وحتى لنا نحن عابري السبيل - بأن تلك البلاد الواسعة الأرجاء بمائتي مليون من سكانها تستهلك الطاقة المتاحة - البترول - باستهتار وتعسف في كل مرافقها الصغرى والكبرى، في البيت، والنُدوة، والمصنع، وفي كافة أجهزة الإعلام، إضاءة وحركة، تصنيعاً، ودفناً وتكييفاً، وحلاقة ذقن وتعقيص شعر، وفي الآلاف المؤلفة من سيارات الركوب التي تشبه البهو الفسيح الأنيق، وكاميونات التجارة، وكأنها بيوت تتحرك - أقول : كان واضحاً لنا جميعاً أن من المحال استمرار الحال، على هذه « البعزقة » المحمومة، وأن يوماً قادمًا سوف يدق ساعته لتبلغ الناس حدود الممكنات التي تعطىها هذه الطاقة، حساباً لنفاد الوقود .

إذن فالمطلوب أولاً : الاعتدال، والاختزال في استهلاك البترول، والجد

والكد في البحث عن مصادر للطاقة، جديدة أو قديمة. حرارة الشمس، والفحم الحجري، والطاقة الذرية وعدم التلكو في استمرار البحث، والتوسع فيما تنتجه بطون الأرض بالأسكا.

كل ما أثاره الرئيس كارتر يكشف عن خلقية قلق بالغ لدى الغرب كله من تكرار توقف الضخ. أما التهديد البعيد فهو استمرار الحال على هذا المنوال، فإن الحقيقة الرهيبة هي أن يوماً محتوم الأجل يصبح من الثابت فيه نفاذ كل المخزون بباطن الأرض، حتى في أعماق المحيطات. ولقد ذكرني هذا «بموضوع إنشاء» كان قريباً من قلب مدرسينا الإنجليز قبل حرب ١٩١٤. لم تك الدبابة قد اخترعت وكانت الطائرات أقفاص دجاج هزيلة، والسفن والقاطرات جل عمادها على الفحم، والسيارات كانت ترفاً ووجهة تسيير فرادى كل حين ومين بالشارع الذي نسميه اليوم رمسيس! فكان «موضوع الإنشاء»: من المتوقع أن تستنفذ المناجم فحمها، فماذا يكون المعمل حينذاك: وكيف نتصور وسائل اتقاء هذا القضاء المحتوم؟

آسف إن أبعدي موضوع الطاقة عن هدي، وهو شخصية الرئيس چيمى كارتر، وأثره على الأزمة التي نعيشها في الشرق الأوسط مهبط الأديان السماوية، ومنبت حضارات عظيمة، وقد تعقدت الأمور من جراء شعب خليط هاجر من مساقط رأسه في شرقي أوربا وغربها وجار على السكان الأصائل، عرباً مسلمين ومسيحيين، ويهوداً شرقيين، لغتهم جميعاً العربية، وحكم الزمان على المغلوبين منهم أن يتفاهموا بلغة التوراة، وقد تحولت على أيدي الدخلاء إلى عبرية بزرميط، فرضتها دولة شديدة التعصب، عنصرية المذهب، دموية المزاج.

لم انته في فحصي وبحثي إلى شيء ذي بال، ولا دفعني إليه تفاؤل أو تشاؤم، بل مجرد ما نتوقعه من الموقف الجديد الذي وقفه الرئيس كارتر بين العرب والإسرائيليين. وهأنذا أصدق القارئ بما سجلته في أوراق طائرة، قبل أن أبلغ هذا الشرح والتفصيل، مجرد انطباع من رؤية الرئيس الأميركي في التليفزيون الملون يخطب السلطة الثانية في بلاده.

تصور سياسي بعد رؤيتي للمستمر كارتر يتحدث إلى الكونجرس

هذا رجل عملي، مزارع متطور، بكل معنى التطور في تلك البلاد محددة التخصص. ناجح في عمله، طيب السيرة، يعيش في بلده «بليز» محبوباً من أهلها. إنسان متدين، حريص على تقاليد مذهبه في إلقاء درس الأحد بالكنيسة. أول نجاح له خارج الفول السوداني، كان انتخابه حاكماً لولاية جورجيا. وكان هذا إشارة إلى طموحه نحو المركز الأسمى الذي بلغه مع مطلع العام الحالي. وهذا دخل السياسة من بابها الكبير رأساً، لا كرجل سياسي، بل كأمريريكي حالفه التوفيق في زراعته وتجارته، كما كان ناجحاً في حكم ولايته. ونجح عندما كانت أميركا تستغفر ربه فيها وصل إليه حالها تحت رياسة رجل لم يسلك الطريق السوى، وقال عنه أكبر صحفى أميركي في حديث خاص قبيل وفاته، وقد بلغ الثالثة والثمانين من العمر (ولتر لهمان): «إن الفساد المحكم الحلقات حول هذا النكسون أسوأ من كل ما رأيت في حكم الأحد عشر رئيساً الذين عرفتهم. الديمقراطية في خطر، والحق أننا لم نحظ بعد فرنكلين روزفلت برياسة ذات جدارة. لقد قسوت على آل كيندى، بالرغم من ثراء أفكارهم. ولكن الأهم والأساس في الحياة العامة ليس الألمعية، وإنما هو: «القوم الخلقى». يختار

معاونيه، ويحركهم في كل اتجاه يراه أو يرونه. هادىء الطبع، مافقٌ موضوعاً تحت مجهر الصحفيين السياسيين. وفي حديث واحد منهم عنه، أشار إلى وصف الرئيس السادات له، بعد اللقاء التاريخي في واشنطن، حين عبر عن انطباعه بأنه إنسان «سويت» وكان تعليق الصحفى: هذا التعبير، وإن كان غير صحيح من الناحية «الأيديوماتك» فهو صحيح فيما يعنيه البرزيدانت السادات.

«الرجل عذب في عيونه، هادئ في ابتسامته، وبهذا حقاً قد جمع اللقاء بينه وبين رئيسنا، جمع بين طبيعتين إن لم تتشابهاً ظاهراً، فإن سلامة الغرض، وصراحة العرض، كانا أساساً لتبادل الثقة بين رجلين، من بيئة ريفية. وقد عبر كارتر وصفاً لهذا اللقاء بما يمكن اختزاله بكلمة «أوه - كيه». فلنركز الضوء بعد انقضاء أكثر من شهر على هذه الوقائع بقصاصات من صحف شيكاغو ونيو أورليان ونيويورك، لا من ناحية أنبائها، بل لإكمال التحليل لشخصية «كارزماتية» من النوع الناعم لا الزاعق/الهائج، المحطم للعوائق.

عرفت أولاً أن كارتر خدم مجنّداً في البحرية، وفي الغواصات الذرية تحت قيادة الأميرال هايمان ريكوفر. وأمامى صورة لكارتر يستقبل بالبيت الأبيض رئيسه السابق في البحرية.

وهذا مختصر ما جاء بصحيفة «النيويورك تايمز» أرسله الصحفى من واشنطن في ٢٤ من إبريل: سأله الصحفى: «من هو أعظم الناس أثراً في جيمى كارتر؟ أجاب بعد تفكير ملى، وكان الموضوع لم يرد من قبل: والداه طبعاً، وأكيداً أستاذة في المعهد العالى اسمها جوليا كولمان ذات صوت حنون. ثم يصل دون تردد إلى الأميرال هايمان ريكوفر، اللفظ،

المشاكس الذى أنشأ أسطول الغواصات الذرية .

« كان له أثر عميق على حياتى، أكثر من أى إنسان، فيما عدا الوالدين ».

يقول مستر كارتر وهو يتذكر تلك الحقبة الهامة فى تكوينه، منذ عشرين سنة مضت عندما كان شاباً، ضابطاً بحرياً طموحاً، وكان الأميرال قبطانه المتجهم الصارم، المستقل برأيه عن الجماعة، شديد الحرص جداً على تحقيق أهدافه، غيوراً على سلطاته، أوتوقراطياً فى ممارستها. فهناك إذن دلالات على أن أثر الأميرال البالغ اليوم السابعة والسبعين من العمر أصبح القوة الفعالة فى تكوين أسلوب الرئيس كارتر الذى تحول من مرءوس الأميرال، إلى قائده الأعلى.

وهذا الأسلوب يقلق بال مساعديه فى البيت الأبيض إذ يشعرون بأن منحاه هو خنق مرءوسيه وتخويفهم، وهو - مثل الأميرال - شديد الإحساس بقيادته المعنوية الأخلاقية، يستريح إلى خطب الوعظ. وهو - مثل الأميرال - يمكن أن يكون لطيفاً رقيقاً مع من يريد إرضاءهم وإقناعهم ولكنه - مثل الأميرال، مقطب الجبين - يمكن أن يكون جافاً، حاد اللسان مع من لا يتفقون معه، أو يشيرون استيائه.

وواصل الكاتب شكوى رجال البيت الأبيض من حزم الرئيس، واملاء إرادته دون أن يسمعوا منه كلمة تشجيع أو ملاطفة.

قال كارتر فى الرسالة التى قدم بها نفسه إلى الناخبين: « وكنا نخشى الأميرال، ونحترمه، ونجهد فى إرضائه. وفى هذا الصدد لا أذكر أنه نطق يوماً بما يعنى رضاه عنى، وعندما قرأ أحد مساعدى كارتر هذا الكلام صاح: إنه الرئيس بعينه:

وواصل الصحفى على هذا النمط، محاولا تصوير الجو فى « البيت الأبيض » كأنه بيت التوجس، والخضوع، والعمل الشاق، دون جزاء أو شكور.

ولم يتأخر الرد على هذا المقال، من المتحدث الصحفى عن البيت الأبيض. ليس فيه من جديد، فهو الصورة الديوانية التى تنتقص من « ادعاءات صحفى النيويورك تايمز »، وتؤكد أن المتحدث الصحفى تحرى من كبار موظفى « البيت »، فلم يجد سوى واحد منهم ذكر أنه تكلم مع الصحفى، ولكن فى غير ما جاء بمقاله. كل هذا لا يعينى، لأن المتحدث الصحفى يبدو ناقص الخبرة بحياة البحر - ولا أزعم لنفسى من هذه الخبرة إلا قليلا - بسبب عملى السابق مع قومندانات البحرية المصرية أيام اشتغالى بعلوم البحر، ومع القومندان الإسكتلندى للباخرة «مباحث»، وعليها بعثة السير جون مورى فى المحيط الهندى.

وأهم ما خرجت به من تجربتى المحدودة احترامى الكامل لرجال البحرية. فأخطار البحر، والحرب تتطلب من القيادة صرامة تامة، وسلوكاً أخلاقياً سامياً. وأدركت أن الدرس الذى يتلقاه مثلى من النظام البحرى، يترك أثراً بعيداً فى طبعه، دون أن يغير من طبيعته المدنية. ولعلى أخرج من كل هذا باطمئنانى إلى أن الرئيس كارتر رجل على خلق عظيم، وأن إحساسه عميق بواجبه لا نحو وطنه فحسب، بل نحو العالم بحكم رياسته لواحدة من أقوى الدول فى عالم اليوم. ولا أقول هذا تفاؤلاً بما يمكن أن يتم على يدى كارتر فيما يعنيننا، ويعنى مستقبل بلادنا. فأمر هذا كما قال الرئيس السادات يتعلق بنا وحدنا، إلا إذا كانت « وحدنا » هذه تعنى شيئاً أكثر مما أفهمه أنا عندما أذكر بمستقبل بلادى.

إنما أقول : أيًا جاءت نتائج جهود كارتر في سبيل الوصول إلى حل في منطقتنا إيجابياً أو سلبياً ، فإنني مطمئن مقتنع بأن الولايات المتحدة تحظى برئيس تربي على خلق رجال البحرية ، وأنه صادق الوعد مستعد في تنفيذه الذهاب إلى أبعد حد .

كيسنجر.. ميترنخ العصر الحديث

١

هذه ترجمة حديث صحفى، عن «الأوبزيرفر» عدد ١٢ يونية: غادر هنرى كيسنجر وزارة الخارجية (سكرتيرية الدولة) فى يناير من هذا العام بعد رئاسة جيمى كارتر وعرضت عليه خدمات كاتب ومعلق سياسى بلغت ستة ملايين دولار، وفى الأسبوع الأول من الشهر الجارى ذهب دجلاس كيتز نائب رئيس صحيفة «الأوبزيرفر» اللندنية وكنيث هاريس (أميريكى) محررها، إلى الدكتور كيسنجر فى مكتبه بالدور العاشر لمركز الدراسات الاستراتيجية بمدينة جورج تاون، لإجراء حديث صحفى معه على دورين وتقدما إليه بأسئلة لا تنتظر انتهاءه من كتابة مذكراته فى عام ١٩٧٩. ومن الأسئلة المزجاة، على سبيل المثال: لماذا يعتبرك بعض الناس فيما يقرب من مجرم حرب؟ كيف استطعت كيهودى التعامل مع زعماء العرب؟ ولقد أرخى سدول الكتمان كثيفة على موضوع واحد... صلته الشخصية بالرئيس السابق للولايات المتحدة، ريتشارد نيكسون.

ص: أنت أول وزير خارجية منذ الحرب العالمية الثانية، تستعفى من وظيفتك، وقد ازداد التقدير العام لك؟ حسبها ظهر فى عمليات الاستفتاء بأوربا والولايات المتحدة. وكان هذا على عكس ما جرى لدين أتشيسون وجون فوستر دلاص ودين راسك. وما تفسيرك لذلك؟

ك : كنت بالخدمة في حقبة تطلبت تغييرات كثيرة في سياسة أميركا . والحاجة إلى التعديلات لم تكن من اختراعى ، أو اختلاق الدواوين التي عملت بها . وعملية التغيير كان يجب أن تحدث في فترة مشوشة مرتبكة وخلافات نشبت في هذه البلاد من جراء حرب الفيتنام أولاً - ووترجيت ثانياً . وهذه المتغيرات مهدت لعمليات درامية رمزية كشفت عن طريقة جديدة في تناول المسائل وتنظيم دولى جديد وجاء هذا مساقاً لإحباط وخيبة في بعض المواضع ، وتفكك السلطة التنفيذية وتحللها في مواضع أخرى بسبب « ووترجيت » . وكان الجمهور الأميركي في حالة تحطم ، كما طال الزمان بالكونجرس يتطلع أعضاؤه إلى عمل يفخرون به أو يعتبرونه عنواناً عليهم . وهكذا خَرَجَتْ من تلك الحقبة في صورة معقولة بسبب هذه الظروف إلى حد ما .

ص : ومع ذلك يعتبرك بعض رجال الجامعات ، والصحفيين فيما يقرب من « مجرم حرب » وهدد أساتذة وطلاب بالتظاهر ضد عودتك إلى الحياة الجامعة . لم كل ذلك العداء ؟ .

ك : أما من الصحافة فاعتقادي أنها أقلية صغيرة . والموضوع الأكثر أهمية ليس طريقة معاملتي ولكنه في التساؤل ماذا جرى لمجتمع المفكرين في الوقت الراهن وفي السنوات العشر الماضية . فأدى إلى هذا الكره الفظيع للذات ؟ .

إننى أفهم أن يختلف الناس على قرارات فردية اتخذت في خلال حرب فيتنام ، لأن كثيراً منها كان شديد العسر ، انقسم الناس بشأنها قسمة متعادلة إلى حد ما . ولكنى كنت أحسب أن المفكرين

بخاصة يفهمون المسألة في موقف يبلغه الإنسان عندما يتولى مركزاً فيجد أن ٥٥٠,٠٠٠ أميركي مشتبكون منذ زمن في معارك. كيف يمكنك كدولة عظمى تخليص نصف مليون أميركي من المعركة في ظروف لا تسمى إلى روح الشعب ولا إلى الالتزامات الأميركية في أنحاء العالم. إنه لأمر شديد التعقيد.

والواقع أننا خفضنا بشكل محسوس القوات الأميركية عاماً تلو عام، عندما كنا في الخدمة وخفضنا عدد المصابين «قتلى وجرحى» في فيتنام من ٩٠٠٠ في السنة الأولى إلى ٤٠٠٠، وذلك قبل اتخاذ سياسة جديدة ثم إلى ١٠٠٠ في السنة الثالثة. ومعنى هذا الهبوط إلى أكثر من النصف كل عام وإلى أكثر من هذا جداً في أعداد التخفيض من القوات.

ويمكن أن يتجادل الناس إلى الأبد فيما إذا كان في استطاعتنا إجراء كل ذلك قبل سنة من تولينا، ولكن الحق أنا بدأنا التخلص والفسكك من أول يوم.

واستراتيجية هذا الفسكك رسمت في مقال كتبه في خواتيم سنة ١٩٦٨ ونشر في يناير ٦٩ بمجلة «الشئون الخارجية». لا أريد أن أناقش فيما إذا كنا على خطأ أو صواب. أما أن يوضع ذلك في حساب التعلق بالحرب. أو أننا مجرمو حرب، وما إلى ذلك من شعارات فلنا أن نتساءل إن كانت بعض هذه الجماعات ترى من الضروري إقامة عدد رمزي لها. ففي كل آن يمكنهم تعليق أى شيء بموضوع فيتنام، يخرجون من خنادقهم إلى اجتماعات تشبه اجتماع المحاربين القدماء، ليحققوا الأجداد

الخالصة في الستينات، عندما كانت المؤسسات معرضة للهجوم. وأعتقد أن لا شأن لشخصيتي بكل هذا وقد حدث ذلك لكثير ممن كانوا منضمين إلى حركة السلام ولو أنهم خالفوا وسائل تلك الحركة واستراتيجيتها، ووافقت أنا على تحركاتهم، وبذلت قصارى جهدى لبلوغ السلام مع اختلاف وسائلهم عن وسائلهم.

ص : ما شعورك حيال تهجم هؤلاء الناس عليك؟

ك : «شوف يا سيدى [هذه ترجمتى لكلمة «ول» التى درجنا خطأ على ترجمتها الحرفية: حسناً]. أكثر هؤلاء الناس عملت معهم سنين عدة، ومع قلة وزنهم لدى الرأى العام فإنهم جزء من تاريخى الفكرى. ويؤلمنى تَهْجُمُهُمْ عَلَى، أكثر من نقد الآخرين لى، فى أقصى اليمين.

ومن ناحية أخرى، فقد توقعت حدوث هذا منذ زمن طويل. وبقيناً حاولت فى وظيفتى أن أضمد جراح الحرب الفيتنامية ولا أظنك ملاقياً طوال قيامى بالخدمة أى أثر لهجوم على حركة السلام لأنى فى صميمى احترم موقفهم الأخلاقى. إنهم لا يسببون لى أى خسارة ولكن الوقت قد حان لإقفال باب الجدل حول حرب فيتنام.

ص : هل تعتقد أنك وفقت بين عمالك كوزير للخارجية (سكرتير

الدولة)، أى الرجل المترفع عن المعارك اليومية، وبين الدبلوماسى المكوك - أعنى الرجل الذى يتحرك بشخصه إلى نقاط الأزمة، ويصرف كماً عظيماً من الوقت والجهد فى المفاوضة بشخصه؟

ك : ألاحظ قبل كل شىء أن من خلفنى، السكرتير سيروس فانس وهو موضوع احترامى العظيم، أعلن منذ توليه أنه لن يضيع وقتاً فى

الأسفار، وهو اليوم يتنقل في رحلات مثلما كنت أفعل. ذلك لأن جدول الأعمال يفرض ضرورات معينة. فلا طريق لسكرتير الدولة يجنبه حضور اللقاءات الوزارية التي تعمل في محالفتنا الهامة، أو فيها له صلة بنا. لا طريق إلى تجنب التفاوض مع الاتحاد السوفيتي في موضوع الأسلحة النووية بعيدة المدى، أو مع الصينيين. ثم هناك نشاط بين بلاد الشمال وبلاد الجنوب يتطلب على الأقل حضوراً، ولو رمزياً لأميركا.

ص : ولكن السؤال ألقى خصيصاً بتلك الساعات الثمينة التي كنت تتحرك فيها ريحة جيئة في الشرق الأوسط، ألم يكن ممكناً أن يقوم غيرك بهذا؟

ك : كلا. أظنك إذ تتأمل الموقف في الشرق الأوسط ترى أنه كان في ميسس الحاجة إلى عصارة الحضور الأميركي. ففي وقت تحركي هناك بشخصي، كان إيقاف ضخ البترول قائماً، وكانت هناك هدنة قلقة وحضور شامل للسوفيت وخطر انفجار جديد. إن صورة العلاقات كلها، كانت تقتضى التغيير. وخطوات لا سابقة لها تتخذ في اتجاه السلام، وهذه عملية لم تكن بالسهولة التي يمكن أن يقوم بها موظفون مرءوسون، فقد كان هذا مستحيلاً مع شخصيات مثل السادات والأسد، تتحمل المسؤولية بنفسها، كان ذلك مستحيلاً بدون حضور سلطة من الناحية الأخرى (الأميركية) هي التي أمكنها اتخاذ الخطأ الصعبة.

ص : سؤال سريع في ذيل هذا: ألم تعجب كيف استطعت، أنت اليهودي السير قدماً، أو أحسن من أي شخص آخر، مع الزعماء العرب؟

ك : « شوف يا سيدى » كان فى هذا عنصر مثير للمشاعر . إننى حاولت فى كل مفاوضة أن أفهم إلى أعمق إمكاني ، نفسية (بسلوكولوجية) ومطمح ، أو آمال الأشخاص الذين أتعامل معهم . إنها لخرافة دارجة ، الاعتقاد بأن مفاوضاً ذا قيمة هو من يتحدث إلى أشخاص مختلفين ، كل بكلام يخالف الكلام مع الآخرين . مستحيل أن تنجح بهذه الوسيلة ، لأنك تقابل هؤلاء الأشخاص مرات ومرات .

المفاوض الطيب هو من يحض من يفاضهم الثقة بأنهم يتحركون فى الطريق الذى يتعلق بمصالحهم ربما أن هؤلاء مسئولون عن مستقبل أوطانهم ، فإنك مجازف دون تبصر إذا حاولت خداعهم فى هذا . كل ما يمكنك عمله هو أن تؤثر على حواف إدراكهم ، وكنت أعتبر هذا قمة دورى .

سؤال خاص بمفاوضات روديزيا : والإجابة عليه :

ص : فى بريطانيا تجرى مناقشة عن الصلة بين وزير الخارجية ورئيس الوزراء . وقد جاء زمان فسدت سياسة بريطانيا بسبب تدخل رئيس الوزراء فى عمل وزير الخارجية : تشامبران وإيدن مثلاً . هل يمكن أن تعطينا فكرة عن صلة عمل جيدة بين رئيس الولايات المتحدة وسكرتير الدولة ؟ .

ك : « شوف يا سيدى » . نظامنا مربوط بعجلة الرياسة مباشرة . أما رئيس الوزراء فى بريطانيا فيرأس هيئة تتخذ قراراتها بمجموعة وفى اجتماع الوزراء الأميريكاني لا تتخذ قرارات جماعية . وإذا كان رئيس الولايات المتحدة حصيفاً فإنه لا يدع لمجموع وزارته اتخاذ قرارات . لأن القرارات والمسئولية على عاتقه وحده ، وكل أعضاء مجلس الوزراء عندنا فى الحقيقة ، مستشارون للرئيس .

والطريقة المثلى هي التي تجعل الرئيس مستريحاً لطريقة اتخاذ القرارات، وأن يطمئن إلى أنه اتخذ قراره بعد اختيار حكيم لواحد من ضمن قرارات عدة ولا يعد هذا قاعدة مطلقة لأن الأهم في ذلك متوقف على طريقة فهم الرئيس وتصوره وإدراكه لدوره، ثم على شخصيته.

فالرئيس نكسون كان مؤمناً بأن السياسة الخارجية تخرج « من البيت الأبيض، والرئيس فورد كان مؤمناً بمسئولية أكبر يلقبها على أكتاف الوزارة، والرئيس كارتر مؤمن بالدور الأكبر للرياسة، وقصارى القول في اعتقادي هو أن النظام الأميركي يؤدي أحسن أدائه عندما يكون سكرتير الدولة (وزير الخارجية) ليس في صف الناحية النظرية فحسب، ولكن في صف الواقع. فبغير هذا يصبح ديوان وزارة الخارجية عاطلاً. وإذا طال به الإهمال، انزاحت عنه المسئولية.

ولكن يمكن لسكرتير الدولة أن يكون النصح الأكبر. فالواجب أن يكون الرئيس وهو، متداخلين عقلياً (كل في عقل الآخر)، إلى درجة ألا يتحقق تمييز بين من هو الذي قرر، وماذا كان قراره هذا.

ويتساءل الصحفيون عن عدد الخلافات بين رئيس ووزير خارجيته. وعن كيفية تغلب الرئيس على سكرتير دولته. ومن رأى إذا حدث تغليب رأى الرئيس على السكرتير مرات عديدة، فإن من واجب الرئيس أن يعين شخصاً آخر للخارجية. فواجب الاثنين معاً أن ينشأ سياسة متماسكة يتفقان عليها. فإن لم يتفقا كان هذا

خطأ. أحدهما يمكن أن يصحح رأيه ، إنما النتيجة وبال على النظام ذاته .

ولهذا أظن أن الصلة بين ترومان وأنشيسون كانت مثالية . كما أعتقد أن صلاتي مع الرئيسين اللذين عملت معهما كانت طيبة . وعموما أعتقد أن سكرتير الدولة ينبغي أن يكون المستشار الأول . فالنظام شديد التعقيد إلى درجة أنه لا يمكن للشئون أن تخرج كلها من البيت الأبيض .